هل انتهت رسالة الأديان
وجاء دور العلم والتطور ؟

للاستاذ حامد محمود الزمزمى
من العلماء

شغلتنا الأحداث عن متابعة قصة الدين والحياة وبالأمس جلست مع صاحبي الدكتور ح .م .ودار الحديث بيننا فى غير عسر لأنه كان غير متعمد. قال : ألازلت مصرا على أن الدين سلوك يمكن أن يؤدى بالفرد والجماعة إلى خير حياة . قلت فى حماس نعم . قال إنك مازلت رجعى التفكير والسلوك . فالدين كنظرة فى الحياة أدى رسالته يوم أن كان العقل عاجزا عن مزاولة التنظيم أو قل إن الشعور والوجدان وهو أول مايظهر للإنسان فى بدء الحياة كان المتصرف فى مواقفه حيال الطبيعة والمجتمع والغيب دواء نافع فى هذه الفترة من العمر البشرى. ولما ضرب العقل بسهم وافر فى ميادين الوجود والكشف عن بعض قوانين الطبيعة أصبح هو كل شيء . والدين شيء تاريخى نحمد له ماقام به فى ماضيه والإنسان ينمو ويتطور وليس غير التغير والصعود شيئا يراد منه فالإبقاء على قوالب اندثرت مع الزمان نصب أنفسنا فيها ضرب من التعصب للماضى .

والأمم الحقة هى التى تتطور فى التفكير ووسائل الحياة وإنك لتدهش ياسيدى إذ ترى أن اليمينيين المحافظين فى أوربا وأمريكا وهم المتدينون . يمثل هؤلاء نزعة الاستعمار وحب التفرقة وماشاكل ذلك مما يضج منه التقدميون اليساريون ـ الوجوديون والاشتراكيون ـ فسارتر كتب عن جهاد الجزائريين فى سنة ١٩٥٦ يؤنب الفرنسيين على سلوكهم الذى لايتفق والمسئولية والحرية . القيمتان الرئيسيتان للإنسان فى نظر الوجودية وروسيا الاشتراكية هى التى وقفت بجانب الشعوب المظلومة تمد لها يد

العون وليس إنذار بولجانين فى حرب السويس غير بعيد .

ومن جهة أخرى فإن الدين نزعة وجدانية وفلسفة باطنية . فالعجز والإيمان به والجرى وراء الغيب والتضحية بالحاضر فى سبيل المجهول . كل ذلك لا يمثل إلا الضعف والذلة . وليس ذلك بمتفق مع إنسان اليوم . إن التجربة والحس وجده . هـذا السلوك للإنسان هو الذى وفر له مدنيته الحاضرة ووفر له وسـائل السعادة .

وصار صاحبى يسرد ماوصل إليه العلم من التقدم بسبب التجربة المحسوسة وأنها وحدها سنده فى الحياة . ومن غير الممكن أن يعتمد الإنسان على الحدس والغيب ليرسم سلوكه عليهما . قلت : نعم . ياسيدى . إن العقل وما أدى إلى الإنسان من خدمات وعلوم جدير بالاحترام . والتجربة وماأسدت من تقدم فى الوسائل قمينة بالاعتبار . وقديما لما تشبث الفلاسفة بنظرياتهم ونفضوا أيديهم من الدين راح بعض المفكرين . كالإ كوينى وابن رشد وغيرهما بالعمل على الصلح بين الطرفين . واليوم نرى الحرب بين العلم والدين وسنرى من يقوم بالصلح بينهما ، غير أن الدين يا سيدى : هو العامل الأول فى إبداع هذا الاتجاه الإنسـانى ـ العلم ـ فأول ما وعى التاريخ عن هذه النزعة كان يستند الى بيوت العبادة إذ أن الإنسان لما تدين بنى بيتا يتعبد فيه وراقب السماء وعرف الفلك وأجاد الطب والهندسة وقد تظاهرت الأديان الشرقية القديمة على خلق وعى علمى كالنواة الأولى فى هذا الصرح الشامخ . وما كان العلم إلا ابنا صلبا للدين . وكيف به اليوم وهو يريد العقوق . ألا إن قصة الدين والحياة وماران عليها من خراخات وأساطير بحاجة إلى أناس ينصفون أنفسهم بالرجوع إلى كتاب ظل محفوظا أربعة عشر قرنا من الزمان والنظر فيه ياسيدى . نظر استقراء وفحص لا نظر ايمان وحتمية مسبقة . اقرأ هذا القرآن بروح التجرد عن الأفكار السابقة عنه سواء كانت له أو عليه . هبه كتاب أدب وعلم وفن وفلسفة وتاريخ و . . . مزيج من الكتب فى كتاب . وسأقص عليك

رأيه فى حكاية التطور باختصار .
فى خلال القرن الماضى كانت هذه النظرية التى كشفت عن خيوطها عدة علوم كالجيولوجيا والوراثة وتقدير عمر الأرض و . . إلخ أدت هذه البحوث إلى أن الإنسان لابد وأنه لم يخلق خلقا مستقلا . بل إنه نشأ مخدجا ناقصا كحيوان قمىء ثم تدخلت الطبيعة فى تكييفه حتى صار كما هو الآن ، وبإحصاء الحيوانات الفقارية وعقد الصلة بينها انتهوا إلى أن أقرب حيوان إلى الإنسان ويمكن أن يكون أصلهما واحدا . القرد العالى . حتى سموا بالقرديين بالرغم من أن بعض زعماء هذه النظريه كالفرد رسل لما افتقد الصلة والحلقة التى انتقل فيها هذا القرد العالى إلى إنسان أمام هذه الفجوة السحيقة لم يجد بدا من الاعتراف بتدخل سرى من الطبيعة المستورة .

والقرآن يقول إن الأرض والسماء ومافيهما قد خلقا أولا وفى ستة أيام وأن السماء كانت دخانا . وأنهما والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . ومن الماء خلق كل شىء حى .

وفى هذه الستة الأيام مرت الأكوان فى فترة نمو وصعود حتى صارت صالحة لإيجاد حياة لمن يكونون فيها . إن هذه الأيام الست فترات انتقالية وارتقاءات تطورية ولا علينا إذا كانت ستة ملايين أو ستين مليونا من سنى الشمس والأرض .

اللهم إن الكون وجد أولا ونما وتطور حتى صلح لوجود الكائنات فيه . ثم أخبر الخالق . ملأ الموجودات المستورة عنا . الملائكة والجن . بأنه سيخلق كائنا فريدا . من عناصر الأرض ليتفاعل معها ويبنيها . فهو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . طلب منكم عمرانها . وكان أن اعترض فريق ثم أقنع فريق الملائكة وأصر فريق وظل يطارد هذا الكائن الجديد - إبليس - أما كيف وجد هذا الإنسان .. ؟ فقد خلق من تراب تطور إلى طين ثم إلى صلصال . حتى استوى . حل فيه سر الحياة . فصار بشراً سويا . علم الأسماء كلها . تنازعته عوامل البناء والهدم . والخير والشر . وبين هذين النجدين تقاذفت الحياة الإنسان .

ومنذ اللحظة الأولى التى تم فيها الخلق صحا آدم الأول على تعاليم من لدن بارئه ، وتوجيهات من ربه ، وإقرار بوجود أكبر منه ، ومن المسلم بعد ذلك

أن يكون الدين وجد بوجود الإنسان وليس هو غير تنظيم استجاباته العديدة لجوانب الحياة . فالكون وإحكامه وتنظيمه التام له محكم ومنظم أوجده على تلك الطريقة الفريدة وأنه موجود وحقيقة . ليس وهما ولا هدفا لضعف حل بالإنسان نتيجة صراعه مع أشياء الحياة . الإقرار بوجود إله أكبر من كل شيء . ولما لم يمارس العقل نشاطه التفكيري بادىء ذي بدء فالوحي هو الذي أرشده إلى ذلك . فلو أننا اليوم وليدو هذا الشوط الكبير من الفكر البشري أعملنا العقل في تلك القضية . لرأينا سماء عالية دون عمد وكواكب وأفلاكا . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . وأنا وأنت . لسنا اللحم والعظم والحواس ، بل إن وراء ذلك كيان هائل يطل على الوجود ويعيه من خلال تلك البلورات المحدبة خلف الحواس الإنسانية . كل ذلك يؤدي بنا إلى الاعتراف بأن هذا الخلق العجيب . لم يكن من صنع نفسه أولا ولا أن يكون خالقه متساويا معه في الرتبة الوجودية فضلا عن أن يكون أقل منه . وإذن فهو أكبر وأعظم . وبذلك المنحى الذي اتخذه الدين لتعريف الإنسان مركزه في الحياة . وأنه مقهور لأعظم منه يسلم به الفكر والعلم الحديث بعد أن سلمت به الفطرة في بدء الوجود .

والأديان على اختلافها سماوية وأرضية إنما تؤمن بهذه القوة الهائلة وتدين لها بالطاعة غير أن مناظيرهم مختلفة الأحجام والمقاسات . فمنهم من يراه شيفا أو بوذا أو يرمز إليه بحيوان كالطوطم أو حجر أو نار أو إنسان .. إلخ . واختلفت الملل غير أن شيئا واحدا متفق عليه . هو الإقرار بوجود أكبر ، إن جهلت حقيقته فلا ينكر أثره ، وبعد :

ماهي طريقة التنظيم الديني لاستجابات الإنسان للحياة ؟ فذلك ماتكفل ببيانه القرآن الذي أدعوك لقراءته معي . وسأبدأ معك بعون الله في بيان ذلك في مقال آخر إن شاء الله .